

Vol 03 المجلد 03	حفريات المعرفة	Issn : 2830-912X
Num 01 العدد 01	Hafriyat Al-marefa	2023

المرأة العربية وخطاب المقاومة؛ بين الرغبة في إثبات الذات والخضوع إلى النظام الأبوي قراءة في رواية "بئر الحرمان" لـ "إحسان عبد القدوس"

Arab Women and the Discourse of Resistance; Between the Desire for Self-Assertion and Submission to the Patriarchal System
A Reading of the Novel "Well of Deprivation" by Ihsan Abdel Quddous

نسبية محي الدين.

Noussaiba Mahieddine

noussaiba.mahieddine93@gmail.com

جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة - الجزائر

سارة بوطويل.

Sara Boutouil

sara.boutouil19@gmail.com

جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة - الجزائر

الملخص:

ترمي هذه المقاربة الموسومة بـ "المرأة العربية وخطاب المقاومة؛ بين الرغبة في إثبات الذات والخضوع إلى النظام الأبوي-قراءة في رواية "بئر الحرمان" لـ "إحسان عبد القدوس" إلى البحث في أشكال هيمنة المنظومة الثقافية الأبوية في المجتمعات العربية على المرأة، ثم كيفيات الرد بالكتابة عليها من قبل الرجل نفسه ومحاولة الانعتاق من خطاب الاستبعاد الذي أسسه منظور المجتمع المبجل برؤيا أقرب إلى العدائية

تجاه للمرأة من جهة، وبنية الثقافة الأبوية التي تقدر الذكورة وتزيج ما سواها من جهة أخرى، حيث تندرج رواية "بئر الحرمان" للمصري "إحسان عبد القدوس" ضمن الخطاب الثقافي المقاوم، الذي يتبنى مشروع مساءلة واقع المرأة العربية وتسليط الضوء على الموجهات أو المؤسسات السلطوية التي تواجهها وتحاول قمعها واختزال خصوصيتها، بوصفها نتاجاً لبنية أو منظومة سوسيوقافية تقوم على خطاب التمييز والانتقاص من هذه الذات.

وعليه؛ فقد حاولنا من خلال الاستناد إلى المنهج الوصفي-التحليلي كشف مضمرات الخطاب الفني في بعدها المقترن بمركزية المجتمع الذكوري، وكيفيات تفكيك النص الروائي "بئر الحرمان" للمقولات الموجهة لهذا الخطاب، حيث عمدنا إلى تتبع تمثيلات القيم الاحتجاجية التي ساقها الكاتب في مدونته موضوع الدراسة، وكشف من خلالها كيف تسهم البنى الاجتماعية للثقافة العربية في خلق بيئة هشة تؤسس لتشكيل امرأة أكثر هشاشة واستبعاداً. لتفصح هذه الدراسة على وضع القارئ وجهاً لوجه أمام تجارب نسوية مؤسلة ومكبلة داخل قوالب اجتماعية تكرر رؤية الفكر الأبوي، وتعبر عن صراع قائم بين المرأة وبين المنظومة التي تؤسس لهذه الهرمية في التعاطي مع الذات النسوية، وهو ما يمكن الوقوف عليه من خلال جملة هذه التساؤلات: كيف تمثل "إحسان عبد القدوس" واقع المرأة العربية في ظل المجتمعات الأبوية؟ ماهي المحمولات أو المرجعيات التي تدخلت في خلق هذه التراتبية؟ وكيف أسهمت المنظومة السوسيوقافية العربية في إنتاج ذات مؤسلة ومنشطة بين الرغبة في إثبات الذات وبين السعي إلى إرضاء هذه المنظومة؟

الكلمات المفتاحية: المرأة العربية، خطاب المقاومة، إثبات الذات، النظام الأبوي، بئر الحرمان، إحسان عبد القدوس.

Abstract:

This approach, entitled "Arab Women and the Discourse of Resistance; Between the Desire for Self-Assertion and Submission to the Patriarchal System - A Reading of the Novel 'Well of Deprivation' by Ihsan Abdel Quddous," aims to investigate the forms of patriarchal cultural hegemony over women in Arab societies, and how men themselves respond to it through writing. It attempts to break free from the discourse of exclusion established by a societal perspective that is hostile to women on one hand, and the structure of patriarchal culture that

sanctifies masculinity on the other. The novel falls within the resistant cultural discourse, questioning the reality of Arab women and highlighting the authoritarian institutions they face.

Accordingly, relying on the descriptive-analytical approach, we attempted to reveal the implications of the artistic discourse in its dimension associated with male-dominated society. We examined how the socio-cultural system in Arab societies contributes to producing a stereotyped and split self, torn between the desire for self-assertion and the effort to satisfy this system's expectations.

Keywords: Arab woman, resistance discourse, self-assertion, patriarchal system, Well of Deprivation, Ihsan Abdel Quddous.

أولا- تمهيد

إذا كان مفهوم الجندر يُعنى في بدايته بتحديد الخصائص والسمات البيولوجية المميزة للنوع البيولوجي أو الجنساني فإنه قد تحول فيما بعد ليقترن بالخصائص المرتبطة بالمرأة أو الرجل، استنادا إلى المنظور الاجتماعي في مقارنته لهما بصرف النظر عن الصفات البيولوجية الخاصة بكل نوع على حدة ، حيث شكل كتاب "سيمون دي بوفوار" "الجنس الثاني" اللحظة الفارقة في تغير الكثير من المفاهيم التي تبنتها الموجة الثانية من الحركة النسوية في أوروبا، حيث صرحت بأن ضبط النوع إنما يتحدد بناء على صناعة المجتمع ورؤيته، وهو ما يعني أن المرأة لا تولد بوصفها امرأة بيولوجيا وإنما بناء على صناعة المجتمع وما يمنحه إياها من خصائص تتحكم في تحديد الأدوار الاجتماعية المنوطة بها، وهو ما يعني أنه "طريقة للدلالة على الإنشاءات الثقافية... أي السيرورة ذات الطبيعة الاجتماعية تماما في خلق الأفكار والتصورات بشأن الأدوار المناسبة للنساء والرجال وتلك الطريقة للإشارة إلى ما لهويات الرجال والنساء الذاتية من طبيعة اجتماعية حصرا"¹. وهي القضية التي لقيت الكثير من الاهتمام من قبل النقاد والأدباء الذي سعوا إلى تمثل هذا المعطى ومقارنته استنادا إلى المرجعية الثقافية التي تعتنقها هذه الذوات وتبناها في رؤيتها إلى مفهوم الثنائية الجندرية وانعكاسها على علاقة الرجل بالمرأة، ثم علاقة هذه الأخيرة بالسياق السوسيوثقافي المتدخل في إنتاج هذه التصورات وتحديد وضعها الثقافي في إطار هذه البيئة التي يحكمها منطق المركبات.

ثانيا- البكارة كنموذج ثقافي مركزي؛ جدلية الجسد والشرف في الثقافة العربية

تستحضر رواية بئر الحمرمان قصة فتاة مصرية تشكل عقدها من مفهوم المجتمع المصري لقضية البكارة، حيث تكبر الفتاة على تفاصيل نعتها ببنت الحرام من قبل المربية التي أشرفت على تربيتها، وعلى الرغم من طرد والدها لها ومحاولة الفتاة استبعاد هذه التفاصيل من ذاكرتها إلا أن عقدة الفضيلة المقتربة بالبكارة ظلت تلازمها وتفرض تداعياتها عليها، من منطلق العلاقة الجدلية التي تنبأها الثقافة العربية بين مفهوم الفضيلة والذات الأنثوية؛ «فالنموذج الأكثر استعمالا للتمثيل على الفضيلة الجنسية هو نموذج المرأة أو نموذج الفتاة الشابة التي تدافع عن نفسها ضد هجمات من له عليها كامل السلطة (الرجل)؛ فالحفاظ على الطهارة وعلى البكارة والوفاء بالالتزامات والتمنيات سيسكلان حينئذ أمثل اختبار على الفضيلة»¹، لذلك نقف على حرص شديد من والد الفتاة على ضبطها والمبالغة في وضعها تحت المراقبة لضمان حفاظها على المعطى البيولوجي الذي يدل على شرفها وعفتها، وهو ما يفسر وضعها تحت أعين الحارس في رحلتها الجامعية ومنعها من الخروج بصفة فردية تحت أي ظرف كان، وعلى الرغم من المضايقات التي تعرضت لها الفتاة من قبل السائق نفسه إلا أنها لم تقو على الرد أو الرفض خاصة بعد أن فرض والدها بقاء الحارس ملازما لها حتى بعد زواجها، لتستمر بالتالي نسقية هذه الهيمنة على الفتاة وتداعياتها النفسية عليها، غير أن أشكال المقاومة التي تبنتها "نهال" ظلت حاضرة حتى وإن لم تجهر بمعاداة المنظومة الاجتماعية التي تتدخل في الحكم عليها، حيث اعتمدت وسائل أخرى تمثلت في ترقيع غشاء بكارتها ، وهو ما يطرح عددا من التساؤلات حول القيمة المرجعية لهذا العنصر ومدى استغراقه لمفهوم الشرف أو الفضيلة، لأن «مفهوم الشرف أوسع في الحقيقة من أن ينحصر في مدلوله الجنسي دون سواه. فما من شك أنه يحتوي على أبعاد اجتماعية لا يمكن أن يستهان بها أو يستخف بوزنها في الثقافة، إذ أن المدلول الجنسي من أهم مقومات الشرف في الأخلاق السائدة وأنه بسبب ذلك كثيرا ما يختزل في مظهره الفيزيولوجي ، المادي البحث مما يحوله بحق إلى أداة لاضطهاد المرأة في ذاتها»²

لقد تعرضت "نهال" لخيانة صديقها الذي وعداها بالزواج وعاشت تجربة هتك شرفها وضرورة التغطية على هذا العار، لتتسائل في دهشة عن السبب الذي يربض خلف هذا الموقف؛ لماذا يخطئ الرجل ويدفع المرأة للخطأ معه؟ أو تنفق على خطئها كلاهما مع بعض، غير أن البنية الاجتماعية لا تسائلهما من المنظور نفسه؟ لماذا تدين الفتاة وتستثنى من ذلك الشاب؟ والأدهى من هذا أن المرأة تتحول إلى ذات مستبعدة ومنبوذة حتى من شريك الجريمة نفسه. «إن المقاييس الأخلاقية التي يضعها المجتمع لا بد أن تسري على جميع أفراد بصرف النظر عن الجنس واللون والطبقة الاجتماعية ، فإذا كان المجتمع يؤمن بالعفة في الجنس كقيمة خلقية فلا بد

أن تسري هذه القيمة على جميع أفرادها، أما أن تسري على جنس دون الآخر وعلى طبقة دون الأخرى فهذا دليل على أن هذه العفة ليست قيمة أخلاقية وإنما هي قانون فرضه النظام الاجتماعي القائم¹. وهو المعطى الذي يتأكد من خلال اتصال الشاب من مسؤوليته الأخلاقية أمامها، حيث فرّ لإكمال دراسته تاركا إياها أمام مجتمع لا يمكنه أن يتجاوز تيمة الشرف أو يتغافل عليها ، وهو منظور مركزي يستمد مرجعيته من المقولة الأرسطية التي ترفض الوحدة الجوهرية للفضيلة ، حيث ربط فضيلة المرأة بمقدار محاسنها لفضيلة الرجل، وهكذا فإن السلوكيات الأخلاقية للمرأة «إنما نتعرف بالإحالة على فضيلة جوهرية تجد شكلها الكامل والمكتمل عند الرجل ، ويرى سبب ذلك في كون أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة سياسية : إنها علاقة الحاكم بالمحكوم ، فن أجل أن يكون هناك نظام جيد في العلاقة فإنه يجب على كليهما أن يشارك في نفس الفضائل ، ولكن سيشارك كل واحد منهما فيها على طريقته الخاصة. فالذي يحكم الرجل إذن يملك الفضيلة الأخلاقية في كمالها»² ، وبما أن فضيلة الرجل منجزة ومكتملة فهو ذات متعالية عن المراقبة ولا يمكن وضعها في إطار المساءلة أو العقاب، بينما تتدرج المرأة تحت سلطة القائد (الرجل) وبالتالي ينبغي عليها الامتثال والانصياع لسلطته من جهة، وكذا وسطوة المعايير المعدة سلفا من قبل المجتمع من جهة أخرى ، وهذا ما يفسر ارتباط معطى العقاب في قضية الشرف بالنساء دون الرجال، حيث نلّس تحركا أريخيا لـ"هشام" بعد خطيئته مع الفتاة وتكره لها، ثم معاودة ظهوره في ثوب أكثر قوة... لتستمر مساوماته لها ويجبرها على الوقوع في الخطيئة مرة ومرتين أو أكثر، لقد وقعت الفتاة في وضع حتم عليها تقبل الانتقال بين أكثر من رجل حتى تغطي على خطيئتها لا يمكن أن تدارى أمام المنظومة السوسيوثافية العربية.. هذا الضعف الذي حتم عليها الاستكانة والمشي ذليلة خلف رغبات الشاب الماخن لتحفظ زواجها وتحفظ معه سرا عاش في جسدها ندوبا غائرة، وهو ما أسهم في خلق نوع من الفصام لدى الفتاة؛ فهي ترفض غير أنها لا تقوى على التصريح بموقفها لتتحول مقاومتها الداخلية بعد هذا الإخفاق في استظهار الرفض إلى حالة من الجنون أو انفصام الشخصية الذي لجأت إليه الفتاة في رحلة مقاومتها . حيث وقف المعالج النفسي على تعرضها إلى «حالة فقدان الذاكرة المؤقت والغيبوبة المتقطعة»¹ التي فسرناها بكونها هروبا من الواقع الاجتماعي المفروض عليها، غير أنها قد سعت فيما بعد إلى الرد على هذه المنظومة وإظهار رفضها الصريح لتبعات مقولاتها من خلال الشخصية الثانية التي تلبسها الفتاة وتمتطيها في رحلة مقاومتها حتى وإن فسرت وفق معطيات علم النفس "بانفصام الشخصية".

لقد أسهم النظام الأبوي المهيمن على معايير التعاطي مع المرأة في الثقافة العربية إلى خلق ذات مستكينة ومستضعفة، وهو ما عبرت عنه الفتاة بحدِيثها عن أمها لدى المعالج النفسي الذي تكفل بعلاج حالتها بتوصفها "بالست الغلبانة"²، حيث أسهمت العلاقة الدونية والتراتبية الهرمية بين والدي الفتاة في علاقتها الجندرية³

ذكر/أنثى في خلق عقدة مستديمة بلاوعي الفتاة شكلت لها صدمات متتابة مع علاقتها بصديقها في الجامعة خاصة بعد تكرر قصة والدتها معها أو خوفها من الوقوف أمام المصير ذاته الذي لحقها.

لقد وقعت الوالدة أيضا في خطيئة الشرف وتسبب عشيقها في حملها قبل وفاته ، وحتى وإن لم يلح الكاتب إلى نية عشيقها في التنكر لها إلا أن وفاته من جهة وزواجها من رجل آخر اكتشف ليلة الزفاف قصة حملها قد فتحت عليها أبواب جحيم لا يعرف تاريخ غلقه أو التحول عنه، حيث تعرضت هذه المرأة إلى عقاب نفسي وجسدي من قبل زوجها الذي ختمه بهجر أبدي لها أبقاها من خلاله في غرفة فردية لا يلج إليها تعبيرا منه عن منظوره الشخصي في عدم الصفح عنها أو إعادة إدماجها في الحياة الزوجية، وهو ما يتجلى في حوار مع المعالج النفسي لابنته ، يقول «هي عارفة أنني باعاقبها...وعارفة أنها تستحق العقاب...كانت بتتعذب...ويمكن لسه بتتعذب لغاية دلوقت...وكننت عارف أنها بتتعد تعيط كثير في أوضتها...»¹ وهو ما يعني عدم صفح هذا الرجل عن زوجه رغم وقوفه على عذابها وكأنه يتلذذ بعقابها وتتجدد ذاته كلما أمعن في ذلك، متغافلا عن تبعات هذه الممارسة على شخصية ابنته واستعدادها للانحراف الجنسي من خلال توظيف هذه العقدة في الارتقاء على الرجال خلال استحضارها الشخصية الثانية التي تغالبها في لحظات الغيبوبة المتقطعة، حيث وقف المعالج النفسي على تفكيك ذلك من خلال محاولتها تعويض الحرمان الذي تعرضت له والدتها، وخوفا من الوقوع في المصير نفسه أيضا، «ولم تستطيع أن تواجه هذا الخوف بعقلها الواعي...لم تكن تستطيع أن تعترف به...إنما ظل الخوف قابعا في عقلها الباطن...في اللا شعور...وظل يتضخم حتى كون شخصيتها الثانية وقويت هذه الشخصية حتى أصبحت تغلب شخصيتها الظاهرة...فتنطلق في فترات أشبه بالغيوبة..تنطلق انطلاقا جنسيا عنيفا إلى حد أن تندفع إلى الاستسلام لأي رجل يصادفها في الطريق»². غير أن الفتاة قد تمكنت في الأخير من التغلب على هذه العقدة من خلال مواجهة الوضع الذي وقعت فيه والدتها في علاقتها الجندرية مع الوالد وهو ما سمح بإقامة علاقة متوازنة مع زوج لم يطلعا الكاتب على منظوره الثقافي وطريقته في التعاطي مع المرأة.

ثالثا- من خيانة الرجل إلى مقاومة المرأة؛ قراءة في إعادة تشكيل الذات ضمن النظام الأبوي

تمثل الرواية صوتا نقديا يحاول استنطاق الخطاب الثقافي العربي في علاقته بالمرأة حيث يمثل الرجل نفسه شخصية المرأة ليعبر عن أنها في علاقته بالآخر الرجل، ليصنع الكاتب نوعا من الثنائية الدالكتية في عمله الروائي الذي زاوج بين معطين اثنين في عرض الأصوات السردية والتثليل لها، حيث انطلق في بداية توصيفه واقع

الفتاة المصرية إزاء منظومة ثقافية منغلقة ومتمركز على ذاتها من منظور الرجل نفسه الذي يسعى إلى تفكيك هذا السياق من خلال الإشارة إلى انعكاساته السيكلوجية على وجود المرأة وهويتها بوصفه الطبيب النفسي الذي سعى إلى تفكيك عقدة الذكورة المترسبة في اللاوعي الباطن للفتيات اللائي قام بعلاجهن، إذ يعمد الكاتب إلى تكليف الرجل بمهمة عرض واقع المرأة وتحليل عقدها التي تجهلها هي نفسها مثلها وقفنا على ذلك في كيفية عرض قصة ناهد"، لينتقل في الشق الثاني من العمل الروائي إلى تلبس ذات المرأة والتماهي في شخصيتها من خلال تحوله إلى الحديث بلسان المرأة ذاتها وهو ما يمكن أن نستعير في توصيفه وسم "الأدب المقنع" قياسا على "القصيدة المقنعة" حيث «يخاطب الرجل بوصفه (امرأة) المرأة بوصفها (الأنا) لتكون النهاية هي السيادة الأنثوية مقابل التضحية بالذكورية التي كان الشاعر قد قبل أن يقدمها قربانا للمرأة»¹ وهو ما يعني أن الذات الساردة المتمثلة في الرجل قد قامت بإزاحة نفسها لتعود من جديد في شكل آخر من أشكال التماهي مع الآخر رغبة في التعبير عن واقعه الداخلي والتماس معه، لأن الأدب المقنع وفقا إلى المنظور الذي يشاكل بين الأنا والآخر، هو النموذج الأدبي الذي يتلبس فيه الرجل شخصية المرأة ليحاكي ذاتها ويمثل وجودها وخصائصها التي تميزها عن الآخر الرجل انطلاقا من منظور جوليا كريستيفا لمفهوم الهوية النسوية التي استلهمتها من تحليل ميخائيل باختان في حديثه عن الكرنفال الذي نظر إليه بوصفه محاكاة ساخرة تصب في الشق الثاني من هذه الفكرة المتعلقة أيضا بالنزعة الحوارية أو التناصية حيث اعتبر باختين أن المرأة تنتج الكتابة بوصفها عملية تناصية تحاكي في بنائها تجربة الرجل وتسعى إلى انتحالها².

وعليه فقد سعى "إحسان عبد القدوس" في الكثير من أعماله الأدبية إلى تمثل واقع المرأة والتعبير عن القهر الاجتماعي الذي تعيشه في ظل النظام الأبوي وانغلاق المجتمع العربي في مقارنته للقضايا المقترنة بالمرأة وهو ما يمكن أن نطلق عليه وسم الأدب النسوي حتى وإن كان كاتبه رجلا وليس امرأة لأنه يتوافق مع القضايا أو المضامين التي يثيرها هذا النوع من الأدب، ذلك أن «إنتاج نصوص نقدية تنظر إلى المرأة موضوعا أو ذاتا، أو تنظر لها مقصية أو ممركة وبهذا التصور الرؤيوي يتحدد دور الناقد فأما أن يكون منضويا تحت لواء الحاضنة الأبوية ومن ثم تكون الكينونة الأنثوية مغيبة في الآخر وهذا مكانه النقد الذكوري... وأما أن يكون متحررا من مركزية الحاضنة ناظرا للمرأة كيانا وفاعلا نصيا غير مغيب في الآخر وهذا مكانه النقد النسائي (الكتابة النسائية) سواء أكان ممارس هذين النوعين من النقد رجلا أم كان امرأة»³. وهو الاتجاه الذي سار فيه عدد كبير من الأدباء والنقاد في الثقافة العربية، ممن أطلقوا أصوات تفكيك البنية الذكورية والانقلاب عليها تماشيا مع الرؤيا الثورية القائمة على تقويض المسلمات التي شهدتها فلسفة مابعد الحداثة في الثقافة الغربية المعاصرة من طرف عدد من المفكرين والفلاسفة الذين تبنا مقولة تفكيك المركزية الثقافية والانقلاب على يقينيات الحداثة

ومعطياتها في مقارنة القضايا المقترنة بالثنائيات الضدية: مركز/هامش، غرب/شرق ، رجل/امرأة، حيث «انقلبوا على مؤسستهم العتيدة في سبيل إعلاء شأن الآخر المؤنث فقوضوا وفككوا ودحضوا وفي مقدمة هؤلاء النقاد التفكيكيون بدءا بجاك ديريدا وبول دي مان وصولا إلى ميشيل فوكو»¹.

لقد عرض النموذج القصصي الثاني الذي استحضرنه من رواية "بئر الحرمان" قصة فتاة يتجاهلها زوجها لتكتشف خيانتة وتقف على تفاصيلها من خلال تتبعه لها، فتعتمد إلى الانتقام منه بعد أن تيقنت من كونها لا تعدو أن تكون مربية لأبنائه، فهي لا تحظى بأية حقوق زوجية ولا تملك أية مكانة لدى هذا الزوج وهو ما يحيلها وفق "سيمون دي بوفوار" إلى مستثمرة تناسلية ، حيث اقترضت "دي بوفوار" أن المرأة كانت لها سيطرة في الأزمنة البدائية غير أنها قد فقدتها مع طغيان الحلم الأبوي حيث تحولت النساء إلى خاضعات يمثلن جنسا ثانيا متدنيا فقد «كانت النساء أحيانا مستثمرات من ناحية التناسل حتى الإعياء من قبل سيد متسيد ولا سيما في فترات حاجة الجماعة إلى إمكانيات المرأة لرد الأخطار الداهمة»² وهو ما يتوافق والوضع الذي وقعت فيه هذه الزوجة ، غير أن وضعها مخصوص بفترة السلم لا الحرب وهو ما يعني إسقاط فرضية الإكراه على التناسل المقترنة بفترات الحرب واللااستقرار.

لقد أبان هذا النموذج القصصي عن معاناة الزوجة من مركزية الذات الأبوية ولا مباليتها تجاه المرأة-الزوجة، وكيف يلجأ الذكر إلى طرق أبواب الخيانة ليزيد في عمق جرحها ويخط على جسدها رسوما من الانتهاك الذي يتأسس من اللجوء إلى امرأة أخرى، حيث لا يمكن للرجل «أن يتصور المرأة إلا تابعة له لا لغيره وهي ملكه وحده وما من سبيل لكسر هذا النسق إلا بآخر هو غريم ومضاد له حتما وبدا...ومن هنا وكتعويض نفسي تصور أن للمرأة أيضا غريما مضادا عدا ذلك الغريم أنثى/ضرة...شعورا منه أن هذا ما سيضمن لمركزيته البقاء ويجعله متمكنا من فرض تسلطه كواقع ومطمح مشروع سيعطيه بغيته في التسيد من دون منازع»³، حيث يلجأ الرجل وفق هذه الرؤيا إلى امرأة أخرى يستهدف من خلالها كينونتها، وينتهك ذاتها بذات أخرى تضمن له سيادته من خلال تفعيل معطى الغيرة، وهو ماوقع مع هذه الزوجة التي تحملت شعور عدم الرغبة فيها من قبل زوجها واستثثاره بعشيقته تلي حاجياته وتحظى باهتمامه، فما كان منها إلا الرد عليه بالسلاح نفسه الذي أظهره أمامها؛ استحضار ذات أخرى منازرة والتي تمثل بلا أدنى شك في العشيق، تقول الفتاة: «سيكون لي عشيق..لأقع هذا الزوج أني مرغوبة..أنني امرأة إذا أهملها رجل وجدت عشرات الرجال..ولأذيب كرامته كما أذاب كرامتي...لأخونه كما خانني..لأصنع له غريما كما صنع لي غريمة»¹ إنه تعبير صارخ بالرفض، وبغض النظر عن مدلول هذه الممارسة وفق المؤسسة الدينية أو حتى الاجتماعية اللتين لا نتقبلان، إلا أنه قد مثل في بنيته الداخلة أداة مقاومة ورد على المركزية الذكورية في الوقت نفسه؛ رفض المرأة للخيانة، ثم انغماسها في الجرح

نفسه الذي أولت فيه، وهو ما يفسر انحلالها فيما بعد وارتقاءها على الرجال لا لشيء سوى لتشبع رغبة الانتقام فيها «إذ أن القهر والقمع نقل المرأة من موقع الستر والحجاب إلى الإباحية الجنسية... إنه ناتج عن يأس المرأة»² ومن تعبيرها عن الانهك ونفاذ القدرة على التحمل، حيث تراح القيمة الأخلاقية³ أمام غايات أخرى تنصدها الرغبة في فرض الذات ومحاولة قلب مواقع الثنائية الضدية بين الذوات (المرأة/ الرجل) لتصير المؤسسة الزوجية إلى معركة افتراضية بين زوج ينظر لزوجته بعين الخادمة المطيعة التي لا يحق لها التعبير عن رفضها لممارساته تجاهها من خلال استحضار ذات أخرى غائبة تهز كينونتها وتضربها من العمق، وبين زوجة اختارت طريق الانتقام للرد عليه، ثم انعرجت إلى تحقيق ذاتها وإشباع رغبتها في كونها غير مرفوضة من الرجل بصرف النظر عن كونه زوجاً أو عشيقاً وهذا ما يتجلى من خلال اعتراف هذه الزوجة نفسها، تقول: «لم تعد مشكلتي هي الانتقام من زوجي... لم أعد أريد الخيانة لأنتقم... ولكنني أصبحت أريدها لأثبت لنفسي أنني امرأة مرغوبة..»

لقد خنت زوجي...

خنته مع أحد أصدقائه..

ارتكبت جريمة الخيانة كاملة

...

وأهرب من كل خيانة.. لأبحث عن أخرى... خيانات أشبهه بحقن
المورفين.. تمرضني.. وأفيق منها لأبكي.. ثم ما تلبث أن تعاودني عقدي.. عقدة الإحساس
بأنني امرأة غير مرغوبة»¹.

لتخلص الرواية إلى تشكل عقدة مستديمة لهذه الزوجة مردها خيانة الزوج وعد إشعارها بالدفء أو الاهتمام الذي يفرضه وضع القرابة بينهما، على الرغم من أن تجربة "ناهد" في النموذج السابق قد اتخذت منحى آخر خلص إلى تعافيا من العقدة التي شكلتها الذكورة ورسمت تفاصيلها في ذاكرة الفتاة.

ماتخلص إليه هذه المقاربة هو أن رواية "بئر الحرمان" للمصري "إحسان عبد القدوس" قد تمثلت بحق واقع المرأة العربية في البيئة المصرية والإكراهات التي تقع عليها بفعل المنظومة السوسيوثقافية ورؤيتها لمفهوم الذات الأنثوية التي تنطلق من منظور أبوي مركزي يختزل خصوصية المرأة ويخضعها لإكراهات الانضباط لسلطته المتعالية.

وهذا ما يمكن استجلاء تمثيلاته من خلال استحضار نموذجين قصصيين من ضمن جملة من قصص الفتيات اللائي ساقها الكاتب في روايته الحاملة لقصة طبيب نفسي تواجهه عقد ومشاكل نفسية لفتيات مصريات يقعن ضحية البطيركية ويحاولن من ثم التمرد على النظام الأبوي والرد عليه، مثلما يتجلى ذلك مع تجربة "نهال" التي اتخذت من الفصام وتقمص شخصية أخرى ثانية طريقة من طرق المقاومة والرد على الرجل الذي اختزل خصوصيتها في عناصر مقترنة بالعذرية وبالباكارة، حيث حصرت الثقافة العربية قيمة الشرف في هذا المعطى دون أن تسائل الرجل أو تخضعه للميزان نفسه رغم اشتراكه في الجريمة، فهو منظور مركزي يغمض عينيه عن الذات الذكورية ويتغافل عنها من خلال تحميل كامل المسؤولية للمرأة وحدها.

كما ساق الكاتب تجربة "ليلي" التي عانت من خيانة زوجها وإهمالها لها ثم رغبتها في الانتقام منه وسقوطها في طريق الرذيلة رغبة منها في إثبات ذاتها والتخلص من عقدة الرفض التي لازمتها في علاقتها مع الرجال، وهي العقدة التي انطلقت دون أدنى شك من تجاهل زوجها وإعراضها عنها الأمر الذي تسبب بشعورها باللاجدوى لكونها امرأة غير مرغوب فيها، حيث يسائل الكاتب الرجل ويحملة مسؤولية الحفاظ على المؤسسة الزوجية التي لا تعني وفق رؤيته سوى فضاء لاستغلال ذات أنثوية تكمن مهمتها في إنجاب الأطفال وتربيتهم دون أدنى التفات لخصوصيتها وطبيعتها الأنثوية.

ثبت في قائمة المصادر والمراجع

- إحسان عبد القدوس، بئر الحرمان، مكتبة كنوز المعرفة، القاهرة، مصر، 2018.
- أمل عائض الرحيلي، مفهوم الجندر وأثره في المجتمعات الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1، جدة، السعودية، 2016.
- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سليمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2009.

- شيرين ماجد، مذكرة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة ماجستير في برنامج دراسات المرأة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص 23.
- صوفية السحيري بن حنيرة، الجسد والمجتمع، دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2008.
- سايمون ديورينغ، الدراسات الثقافية، ترجمة ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 2015.
- ميشيل فوكو، تاريخ الجنسية، ج 2، ترجمة محمد هشام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004.
- نادية هناوي، الجسدنة بين المحو والخط (الذكورية والأنوثة) مقاربات في النقد الثقافي، دار الراافدين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2016.

الهوامش:

* ترى "منظمة الصحة العالمية أن الجندر هو "المصطلح الذي يفيد استعماله وصف الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة كصفات مركبة اجتماعية لا علاقة لها بالاختلافات العضوية" وهو المفهوم نفسه الذي ذهب إليه رواد الحركة النسوية الثانية والثالثة. أمل عائض الرحيلي، مفهوم الجندر وأثره في المجتمعات الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1، جدة، السعودية، 2016، ص 73.

1 سايمون ديورينغ، الدراسات الثقافية، ترجمة ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 2015، 277.

1 ميشيل فوكو، تاريخ الجنسية، ج 2، ترجمة محمد هشام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004، ص 81.

2 صوفية السحيري بن حنيرة، الجسد والمجتمع، دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2008، ص 61.

1 صوفية السحيري بن حنيرة، الجسد والمجتمع، مرجع سابق، ص 61.

2 ميشيل فوكو، تاريخ الجنسية، ج 2، مرجع سابق، ص 83.

1 إحسان عبد القدوس، بئر الحرمان، مكتبة كنوز المعرفة، القاهرة، مصر، 2018، ص 20، 21.

2 ينظر، إحسان عبد القدوس، بئر الحرمان، مرجع سابق، ص 18.

3 إن البرنامج الاجتماعي هو المسؤول عن تحديد «الاختلاف بين الجنسين البيولوجيين وفق مبادئ أسطورية للعالم المتجذرة في العلاقة الاعتبارية لهيمنة الرجال على النساء، وهي ذاتها متأصلة في حقيقة النظام الاجتماعي، وهكذا بإمكان الاختلاف البيولوجي بين الجنسين أي بين الأجساد الذكورية والأنثوية وبشكل خاص الاختلاف التشريحي بين الأعضاء التناسلية أن يبدو إذن وكأنه التبرير الطبيعي للاختلاف المبني اجتماعياً بين النوعين (Genres)»

1 إحسان عبد القدوس، بئر الحرمان، مرجع سابق، ص 47.

2 إحسان عبد القدوس، بئر الحرمان، مرجع سابق، ص 101.

1 نادية هناوي، الجسدنة بين المحو والخط (الذكورية والأنوثة) مقاربات في النقد الثقافي، دار الرافين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2016، ص 66.

2 ينظر، نادية هناوي، الجسدنة بين المحو والخط ، مرجع سابق، ص 66.

3 المرجع نفسه، ص 22

1 نادية هناوي، الجسدنة بين المحو والخط ، مرجع سابق، ص 24.

2 سيمون دي بوفوار، الجنس الثاني، نقله إلى العربية لجنة من أساتذة الجامعة، نسخة مصورة بصيغة pdf ص 39.

3 نادية هناوي، الجسدنة بين المحو والخط، مرجع سابق، ص 31.

1 إحسان عبد القدوس، بئر الحرمان، مرجع سابق، ص 163.

2 جمال جاسم أمن، كتابة الجسد؛ مكاشفات في النسوية وقراءات لنماذج من أدب المرأة في العراق، نقابة المعلمين فرع ميسان، العراق، 2010، ص 29.

* يرى ميشيل فوكو أن هناك اختلافا فيما يطلق عليه بغائية الذات الأخلاقية لأن الأفعال والممارسات ليست جواهر في ذاتها وإنما تكتسب خاصية الحكم عليها من خلال السياق المكاني الذي تنتمي إليه ويوضح هذا من خلال التمثيل بالمؤسسة الزوجية «فالإخلاص الزوجي يمكنه أن يتعلق بتصرف أخلاقي يوجه نحو انضباط ذاتي كلي أكثر فأكثر ، ويمكنه أن يكون تصرفا أخلاقيا يظهر انفصالا مباحا وجذريا إزاء العالم، ويمكنه أن ينزع إلى سكيننة تامة للنفس، إلى فقدان كلي للحس إزاء تهيجات الأهواء» ميشيل فوكو، تاريخ الجنسية، مرجع سابق، ص 28، 29.

1 إحسان عبد القدوس، بئر الحرمان، مرجع سابق، ص 173، 174.